المياه الجوفية للكتابة تتسع بالمدن والنساء والكتب

كل مدينة سر وهاوية ومتاهة، ما عليه الا اكتشافها، ولكل مدينة طعمها وسمتها مثل الكتب والنساء، والمدن بصمات، فبغداد مثلا فظة ورقيقة، في الآن ذاته، ولندن عملاق يلتهم وقت بنيه، سماؤها رصاص منسكب من أفق بحر الشمال، ودمشق أنثى مراوغة، شفافة وعميقة الغور مثل تجارها، وكوبنهاغن حسناء باردة، تتبدل بتبدل الفصول: في الشتاء بيضاء وفي الربيع خضراء وفي الصيف قوس قزح وفي الخريف ذهب مصهور. حلب وساوباولو وبيروت وروما وبرلين، وصاحبنا يعشق المدن وأسرارها، اذ انها كتب تمنحه لغة مضافة، يغرف منها متى شاء. منح منذ الولادة موهبة الفضول، البحث عما وراء السطح، وما يكمن في الباطن، فتراه يمشي في الأزقة يتطلع الى واجهات الأبنية، ويتأمل في الأشجار المزروعة على تخوم الباحات.

شاكر الأنباري

يكتشف الكنائس وبذخها، والجوامع ورقوشها، والجسور وتصاميمها وأمواجها. يقرأ في كل باب تاريخ صنعه، وفي كل بناية قصة اكتمالها. تلفت انتباهه الفناءات الخلفية أكثر مما تفعل الواجهات، فهناك في القاع تختفي حقيقة المدينة وناسها ومشاغلها. إذا أردت أن تعرف كوبنهاغن جيدا فامض إلى استيد كاذا، الشارع الخليط من الأجناس والليء بمحلات الدعارة والكتب الجنسية والدمنين، هناك حيث القمامة تتراكم وحيث أعقاب السجائر والحاقن المستخدمة لزرق الهيروين تنتشر على الأرصفة. لندن التي عمل فيها غاسل صحون، في مطعم هندي، تكمن فيها الأعاجيب، لا في متحف الشمع، ولا في جسر برمنغهام، ولا في شارع اجوار رود، بل في مدن الزنوج والهنود والباكستانيين الذين يحرثون وقت لندن بعرقهم ورطانة لغتهم، الخليطة من البنغالية والإنكليزية. وفي دمشق كان صاحبنا يذهب إلى الحريقة وسوق الحرامية والشيخ محي الدين، كي يرى إيقاع الحياة اليومية المصنوع من لحوم معلقة وفواكه مكدسة ومخضرات تباع بالجملة وبضاعة لما تزل تنتمي إلى الأرض البكر، ونساء محجبات يبحثن عن كنز مفقود. مرة جلب كتابا يختص بأزهار دمشق وأشجارها لكي يعرف كل ما هو اخضر في هذه المدينة، إما في لندن فكان يسرح ساعات في الترو ويتطلع الى سحنات الكرة الأرضية وهي تتدافع من أمكنة مجهولة لتمضي إلى أمكنة مجهولة أيضا. قطارات وباصات وطائرات، جمال وبغال وسفن. زار الحدائق وضفاف التايمز، وضاع أياما في سوهو، ودرس الإنكليزية على يد أبنائها. عيون النساء في طهران نوافذ إلى حضارات باندة، وشارع ولي عصر يقود إلى جمران. صاحبنا يتسع كل يوم ويحوّل مشاهداته ومغامراته إلى لغة يخزنها في رأسه.

نام في الجبال وأكل التين البري وأفطر على عسل النحل وخبز القرويات للدخن بنار البلوط. مشى ساعات في حقول من الثلوج وعبر انهرا وتسلق أشجار جوز. كان يضع لكل مشهد لغته وكلماته، ويصنف كل شجرة ووردة، ويلملم الأطعمة وأنواعها في ملف خاص سيستخدمه ذات يوم، فهو يمتص الحياة اليومية بعمق، أليست هي ذاتها التجربة التي ستمده بلغة وأفكار وقصص وروايات؟ ينظر ويتأمل، ويحاول الوصول إلى حكمة روحية تخصه. كل ما هو جميل في صالح الإنسان. كل ما هو ممتع يرتفع به إلى سماوات الفن والإبداع. كاد أن يتعلم الفارسية في طهران مثل أبنائها، لكنه لم يطل به الزمان فيها. والناس هناك فضوليون أكثر مما يجب وبسطاء يحاكون حكمة قديمة. الدينة مثل لعبة جميلة، وأشجار لشوارع تخلق عالما غير روحاني. أما البارات للنسقة فهي كانت فيما مضى مرتعا للهيبيز ومتعاطي الحشيشة والخدرات. جاءت الثورة الإسلامية فكنست كل ذلك وظلت الحدائق بلا روح. مدن شقراء، وأخرى سمراء وثالثة خمرية، تنتمي إلى البحر الأبيض التوسط. حين رأى غيوم بيروت التكاثفة على البحر أحس وكأنه يرى مشهدا حلميا لا ينتمي إلى الواقع. دخان دمشق فوق الغوطة يذكر العين بالهنود الحمر الذين عشق أفلامهم منذ الطفولة. السينما أيضا مثل مدن عريقة، كثير اما خلط بينها وبين الواقع. أصفهان نصف الدنيا وحلب متاهة أسواق وبهارات. برلين تنزع الحجاب عن تاريخ طويل قرأ عنه وتحول إلى أسطورة. حين شاهد آثار الحريق على أبنية الرايخستاغ لم يعد يهمه أن يموت. لقد وقف هو البائس أمام معضلة من معاضل التاريخ للعاصر. البصرة عاجة برائحة السمك، وحلب تحيل إلى سيف الدولة، وهامبورغ رافعات عملاقة ومقاصف ليلية وبحيرات. ستوكهولم مزنرة بالثلج والضباب، شيراز تذكره بحافظ وحدائقه: الا يا ايها الساقي ادر كأسا وناولها / ومتى ما تلق من أحببت دع الدنيا وأهملها. مدن من الشرق وأخرى من الغرب، وحين عاش صاحبنا في مدن عديدة تحول قليلا إلى مواطن كوني. صارت كل مدينة جزء امنه. لم يعد ابن مدينة بعينها، فتساءل مع روحه ترى أهي نعمة منحتها له الظروف أم نقمة؟ هذا السؤال يؤرقه دائما. فكثير امن الأحيان يحلم لو انه مواطن بلد ما، لم ير غيره. يعيش على هوائه ويأكل من طعامه ويشرب من مائه. لتعدد مرهق والاتساع ممض. لكن تعدده منحه إمكانية الخيار، بين مشهد وآخر، بين لغة وأخرى، بين إحساس وإحساس. البشرية في عرفه واحدة، مهما تنوعت مشاعرها وأفكارها. النساء مثلا، عشق منهن الشقر والسمر والخمريات، إنهن أيضا مواطنات كونيات. كل امرأة قصة بحالها، وكل امرأة مدينة. كلما أراد أن يمسك حقيقة مدينة عشق فيها امرأة، فهي البوصلة التي كانت تدله على الانفعالات والألغاز وتوريات اللغة والحارات الخافية، والروح السرية الكامنة خلف الجدران والواجهات. منهن الكئيبة والضرحة والراقصة والجثة واللعوب والرزينة، القبيحة والجميلة والجذابة وفاقدة الروح. منهن السمينة البضة والعجفاء للعظمة، القصيرة والطويلة والبين بين. عيونهن تضج بنداءات الأنثى ورغباتها. كلهن يقتصصن عليه أحلامهن في الصباح، على فنجان القهوة، هو الضليع بتفسير الأحلام وقراءة لغة الجسد والتحليل النفسي. يربطن ذلك بعلاقاته بهن وتغيرات حياتهن. لحب هو البداية، لكنه وبعد معاشرة كافية يكتشف انه خدعة الطبيعة لا أكثر، فثمة في العتمة، الجيل الجديد الذي عليهن إنجابه. إنها ضريبة الأمومة. معظم النساء اللواتي قابلهن ولم يكن أمهات، خاصة من بلغن سن اليأس أو العنوسة، كن ساقطات في بحر من الكآبة والعدمية، نتيجة لذلك، كما فسر الأمر. منهن تعلم لغة الجمال، والرقة والتلاوين: الكحل والسكرة وأحمر الشفاه والعطور، بأنواعها، وطريقة تعطير الفم والأباط والأماكن الأخرى، مثل تلك الحلبية التي دأبت على علك اللبان، ساعة بعد ساعة، وتلك الأخرى التي تعشق البرتقال، والثالثة للهووسة بالقرنفل تضعه في علبة صغيرة في حقيبتها، والرابعة التي تنظف أسنانها أربع مرات يوميا. سليمى اعتادت على سقي زهورها بالحليب، وكرستين تطير قبلاتها في الهواء تحت الشجر وعلى حافة البحيرة وفي التاكسي، وماري تشع عيناها مثل طفل كلما رأت شيئا جميلا، ونيفين تعشق الضاجعة في الصباح، وسمية تهوى سماع موزارت أثناء غسلها للصحون. سميرة تزوره في ليالي الصيف بغتة، وتعلن عن حضورها برمي لحصى على النافذة. بعضهن مهووسات بالعطور وبعضهن بأحمر الشفاه. إنهن لغة أخرى تعلم صاحبنا خزنها في مخيلته: النفانيف والشلحات والتنورات والأطقم والشحاطات والبودرات والقميات الشمس والنظارات والأمشاط والقناني. إنها لغة الأنوثة كما سماها، وإكسسوارات هذه الحياة الجافة، ذات النكهة الذكورية. المرأة الدنماركية تتغير مثل فصول البلاد، بين ليلة وضحاها. الدمشقية تساوم على الحب كأي تاجر. البغدادية جلفة وفظة مثل بغداد. الإنكليزية شاسعة وديمقراطية كما لو كانت عضوا في مجلس العموم. البرازيلية تطير بخفة راقصة سكرانة ما إن تسمع الموسيقى، كأي فراشة قادمة من الأمازون. هكذا هن. رقيقات قاسيات حنونات قاطعات جميلات بشعات، يمتلكن لغة كونية واحدة هو الرحم، فمنه تولد الحياة الأولى وتستمر سنة بعد سنة وقرنا بعد قرن، حتى آخر الزمن للكتوب، فهي حكاية يحكيها معتوه ملؤها الصخب والعنف ولا تعني أي شيء، كما يقول شكسبير بضربة حكيم بوذي اعتمد مذهب الزن سبيلا. لقد خان صاحبنا حبيباته لكي يصل إلى الحكمة، وتزوج لكي يؤدي فروض الطاعة للخليقة وأصبح أبا. هجرته صديقاته وهجرهن، نكح من دون رغبة، وأراق من دون حاجة، إرضاء للغريم. ضرب نساء وضربنه، ربى أولادا وتركهم، نام بين أحضان العاهرات، والسيدات، والصبايا، ليفك احتجية هذه الرغبة وتنوعاتها، هذا الليل وأسراره، فلكل امرأة مذاق، ولكل رحم حرارة. وهن لغات أيضا. شهقن وغرغرن وبكين وضحكن وبصقن وتمتمن ونمن واستمنين وسال لعابهن وتأوهن وصرخن. كل ذلك حروف اختزنها أيضا، ادار منها جملا، فالنساء كتب، وصحائف وروايات. دليله إلى المدن والنساء الكتب، للعرفة للدونة منذ آلاف السنين. قال معاوية: والله لم اعد أميز بينه وبين شق لحائط، وذلك لكثرة ما رأى، وقال جد زوربا له وهو يبكي: كيف أموت ويظل هذا الجمال ورائي؟ وصاحبنا مثلما يحب النساء والتيهان في المدن واللغات فهو يعشق الكتب أيضا. وكتبه عجيبة. كتب الطب والفلك والموسيقى والأعشاب والبحار والحيوانات، مرورا بالروايات والشعر والأفكار الفلسفية. أليست للعرفة خلاصة لسيرة الإنسان منذ أن صار له عقل؟ في رأي صاحبنا إن للعرفة دين يصل بالعقل إلى رحاب الآلهة. الآلهة بكل تنوعاتها، سواء كانت في الأرض أو في السماء. قرأ ليمتص عقول الآخرين، ما تقدم منها وما تأخر، دافعه مراكمة خبرات اللغة والأفكار والطرائف. رأى اللغة كيف تتحول من جيل إلى جيل، والأفكار كيف تضيق أو تتسع، خدعها ومفارقاتها وكلماتها الزلقة أو الوارية. من الجاحظ عرف طبائع البخلاء وصفات الحيوان، وفضل شيء على شيء، وأسماء الكلمات الدارسات، التي لازال قسم منها يعيش في قريته ومدينته. أحاديل العيارين واللصوص والشطار اطل عليها في القامات، الهمداني والحريري، وطرائق التعبير في كل منهما، ومترادفات اللغة، وتقعرها أو سلاستها. قرأ البازيار في طبائع الجوارح وطرائق صيدها وأشهر معلميها، وانتابته رغبة في الخوض في كتب تبحث عن عوالم الصحراء والرمال، والطبقات الأرضية من ملح وكلس وغرانيت وفحم. كيف تكوّن النفط وكيف تبلور الماس. العلوم القديمة حصل عليها من الفيدا ومخطوطات قمران وفيثاغورس وإخوان الصفا وابن رشد، وحظي بضنون النساء من ألف ليلة وليلة وكتاب أوفيد. وصاحبنا يلم الصفات والأسماء، ويتابع الخواص في الأعشاب والأحجار الكريمة. انه العالم الذي يحيط بهذا الكائن، يؤثر عليه، يصنعه وينصنع به. ثم يمم وجهه صوب الرواية، فنال حظا من معلميها الأوائل: دوستويفسكي، تولستوي، الاكسندر توماس، فولكنر، هنري ميلر، والتر سكوت، همنغواي، نجيب محفوظ، الغيطاني، ادوار الخراط، إبراهيم الكوني، فؤاد التكرلي، ومن هناك، من الجانب الآخر للمحيط، ماركيز وبارغاس يوسا واليخو كاربنتيه، وسواهم وسواهم، فكانت كل رواية عالما قائما بذاته، مثل المدن والنساء، تشغله أياما وليالي عن ايقاعات الحياة اليومية القاتلة في رتابتها. منها تعلم كيف يفكر بشر آخرون من حضارات أخرى، وكيف تتجلى المدن والأمكنة في اللغة، وكيف يستلهم التاريخ على شكل أحداث وقصص. أما الشعر فهو الفاكهة الخفيفة التي يتناولها كلما أثقلت عليها الروايات وكتب الفلسفة والسياسة. يرى فيه تحليقات الأحاسيس البشرية إلى آفاق جديدة، وغزل الكلمات لكي تنتج صورا وأفكارا، لا تعقل إنما تدرك بالشاعر والتهويمات والخيال.

ذات مرة غامر صاحبنا وراح يقرأ كتبا تتناول لحظ وقراءة الكف ولغة الجسد، فاذا هو لأيام لا يرى كفا إلا ويحَر في خطوطها، ولا وجها منكمشا لدى إنسان إلا وراح يتقرى سبب ذلك الانكماش. نحافة الساق لها معنى، وانحناء الكتفين مليئة بالدلولات. فالجسد معبد الروح، ومرآتها في الآن ذاته. علمه ذلك كثيرا ما سهل عليه التقرب من النساء، فهن باطنيات يحببن قراءة الأرواح واستطلاع خباياهن. تلك متعة للعرفة وهي تتزاوج مع متعة اصطياد النساء في المدن والقرى. وذلك مدخل سهل إلى القلب وتقريب الأفكار والبوح. قرأ كتبا بعدة لغات، ووجد تشابهات كثيرة في جذور للسميات، وراوده إحساس إن اللغة العربية واللغات الأوربية كانت قريبة لبعضها ذات زمن، ذات زمن بعيد موغل في القدم، ربما يعود إلى العصور الجليدية أو الى ما بعد بقليل. هل هاجر الإنسان الأوربي من آسيا؟ فكر بذلك وهو يقع على تلك التشابهات في أكثر من لغة أوربية. تهجى حروفا غريبة وكتب بلسان جديد وضاجع بأحاسيسه الأولى وحلم بلغات غير لغته. كتاب سميك يفوح بعنصرية قاتلة. كتاب يغير حياتك بالكامل. كتب صفراء تبعث على النفور والقيء. كتب جميلة من الخارج فجة من الداخل. موسوعات وقواميس وفهارس وانساب. شاهد تصاميم كتب عجيبة، ودار بين مكتبات ضخمة، ورأى كم هو صغير ركن اكبر كاتب سمع عنه في بحر تلك الجلدات والخطوطات الرصوصة على الجدران. أدرك صاحبنا بعمق وقناعة، إن عليه أن يكون متواضعا، فمهما كتب أو نال من جوائز لن يخصص له أكثر من ركن في مكتبة عامة، طوله لا يتجاوز المترين!! وما يمنحه توازنا داخليا هو تلك المياه الجوفية التي سبح فيها، مدنا ونساء وكتبا، وظلت تمده بالخيال واللغة. وهما في ظنه الدماك الذي تقوم عليه الكتابة.

قصة قصيرة

وجـــوه

أنور عبد العزيز

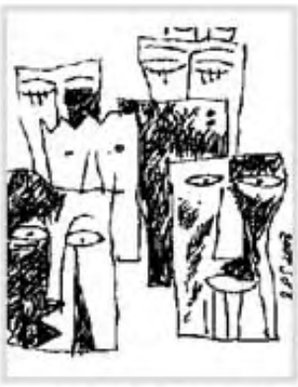

الحافلة المختنقة بركابها الجالسين والواقفين والقرفصين والحشورين في لا مكان بين الأذرع والأكتاف والصدور والأرجل المتقيمة والعوجة المتداخلة والمتشابكة على أرضية الصفيح الساخنة الكاوية، وبالحر والعرق ودبق الأعين والوجوه والرقاب.. لم أكن أريد إطالة التأمل في هذه الكتلة البشرية المسوخة الوجوه والرؤوس واللحى والشوارب المتنوعة بلزوجة العرق الكريه المتمع فوق الجباه والمتحدر ببطء نحو تلك اللحى والشوارب والأنوف والشفاه.. من خلال زجاج النافذة الكسورة، سرح بصري متأملا طول الجسر الجميل وصفحة مياه الشط والنوارس الحلقة بأجنحتها الزاقصة الخافقة للتمعة ببزوغ الشمس الشعة، كنت أطمح أن أبتعد أكثر لألتقط حركة الريح واهتزاز قمم الأشجار في تلك الغابة النائية الواسعة البعيدة.. هو الذي نبهني إليه بحركاته الطفولية النشيطة والعابثة وبأنامله الصغيرة الناعمة الطرية، تحاول أن تمتد لتلمس زجاج النافذة أو طرف القعد ومنفضة السجاير الكسورة الخلوعة، أول ما صافحت منه عيناي شعره الذهبي وتلك الضحكة الثابتة المرتسمة في وجهه وعينيه.. في تلك الظهيرة الخارقة رأيت الطفل الجميل، كان بكل وجوده وابتساماته ولمعان شعره الأصفر وعينيه الخضراوين، قد رسم أحلى لغنية عذبة استمعت وتوهجت بها عيناي الكليلتان... ما إن أحس الطفل بنظراتي وانتباهي إليه، حتى أخذ يتراقص، اتسعت ابتسامته ضياء وألقا، ونشطت يداه وأصابعه في محاولة الاتجاه نحوي، وجدت نفسي مندفعا بتلقائية سريعة لأمسك بتلك الأصابع ولأقابل ابتسامته البهية الشرقة بحنو أبوي وكما يحصل غالبا لأمثالي في مثل هذه الأماكن، لكن ظل وجه الرجل الذي كان الطفل يجلس في حضنه رديء بقوة وشراسة، الظل الذي جعلني أصعد نظري لأتأمل وجه الرجل، فعندما استقر بصري عليه، هالني ما تحسسته فيه من قسوة وخشونة وتجهم ولكفهرار وكآبة.. أي وجه هذا وأية كراهية ونفور تكمن في ملامحه وأعماقه.. وجه عريض بعينين صقريتين حادتين وجبهة عظمية بارزة وأنف ممتد وشفتين جافتين متيبستين وأسنان صفر متكسرة متفرقة معوجة وعينين ضبعيتين ووجه غير محلوق...

الصغير لايزال يحاول أن يتصل بي بطفولية شقية وخانية، فأنا ومنذ أن ارتسمت صورة الرجل في عقلي ومخيلتي وحذري، لم أعد أستطيع الاستجابة لمحاولات الطفل اللحوحة والتكررة للمس أصابع يدي والاشتباك بها، أكثر ما آلمني وأحزنني أنني لم أمد يدي للطفل، كنت أحاول أيضا منع سريان ابتسامتي أن تثير الطفل وتشجعه وتحركه لفعل الزيد، لكن من يضمن أن الوجه العابس للظلم سيرتاح لتصرفي، فمن الآباء من لا يقبل أو يرضى ببعض حركات الفضوليين تجاه أولادهم في مثل هذه الواقف... لم أكن أتخيل إلا أن صاحب مثل هذا الوجه سيلتقطني من رقبتي بكماشتي يديه الطويلتين الفولاذيتين وكنت أرهما كمخلبين حادين ناتئين لطير وحشي كاسر، لذا فقد خنقت في نفسي كل رغبة وميل وحنان للتعاطف مع دعوة الطفل الجميل الصاخب في حركته ومحاولاته.. رغم إنني كنت أحس بما يشبه الانفصام بين الرجل والطفل القابع في حضنه، فالرجل لم ينطق بكلمة واحدة مع الصغير حتى إنه لم يكن ينظر إليه، بل هو كان راغبا ألا ينظر لأي أحد، كنت أحسه كارها نافرا أكل من في الحافلة، ولكل الوجود ولنفسه، لم أكن أخمن، فحتى عندما كان ينظر للشط والنوارس والباني البعيدة ولصف السيارات وللجسر، فإن وجهه كان يزداد عبوسا وعتمة وظلامية.. رغم إنني حدست بذلك الانفصام الشديد والواضح بين الرجل العبوس والطفل الجميل، إلا إنني كنت أحاول أن أزيح هذا الوهم من نفسي، فالطفل جالس وبثقة واطمئنان في حضن الرجل، وقد رأيت ذلك منذ أن صعدت للحافلة.. شدة الحر ولفح ريح تموز اللتهبة وحدة الاختناق والأنفاس اللاهثة وحيرتي في سر هذه العلاقة الغريبة غير التكافئة بين وجهي الرجل والطفل، جعلتني أسهو عن محاولات الطفل التي لم تتوقف للوصول إلى أصابع يدي وللوصول إلي، كنت في أشد الرغبة لأن أتشل الطفل من حضن الرجل البارد وغير الأليف لأقبل أصابعه وأضمه إلى دفء صدري وقلبي وعيوني، لكنني لم أفعل فلا تزال خشيتي من أن يسيء إلي الرجل، تمنعني من التوجه للصغير بمحبتي ورغبتي في ملاعبته، لذا فقد اكتفيت بتوجيه إبتسامات مسروقة إليه منشغلا بمراقبة الخارج وبهذا الداخل للكتلة البشرية للتنوعة والدعوكة... تطاول سير الحافلة، بدأ الزحام يخف، شيئا فشيئا خفتت واضمحلت شكوى الأجساد التداخلة التشابكة...

في خضم حركة الصاعدين والنازلين والتأوهين والتأففين والتثائبين وبعض النائمين، كنت ألمح بين وقت وآخر التفاتات ونظرات امرأة عجفاء بوجه صغير ناحل بعباءة ممزقة مثقوبة نحو الطفل، المرأة كانت حائرة أن تجد لرجليها موقعا ثابتا، كانت تهتز باضطراب مع اهتزاز وتوقفات الحافلة، ربما كانت تخشى وتخجل من السقوط، لم ينهض لها أحد، وما ضحى أحد بمقعده في مثل هذه الزحمة للقرفة، حاولت أن أجد رابطا بين التفاتاتها ونظراتها الطمئنة نحو الصغير، لكن الصغير لم يكن يلتفت إليها، ولم أجد في عينيه أو حركة يديه أي صدى وتجاوب مع نظرات امرأة العباءة، مع ذلك تخيلت لو أنها كانت حاملة للطفل مع هزالها وعجزها واضطراب وقفتها، لطار منها وسقط، لذا فقد مر بخاطري أنها - حفاظا عليه- أودعته لصاحب الوجه التجبر التكبر، مع إنني ظللت أحاور حيرتي في سبب اختيارها للرجل الصخري مأمنا لوليدها الجميل من بين الجميع.. ظل خاطري يحاور هذه المسألة وتخيلت مرة ومرات هذه المرأة القلقة في وقفتها الترنحة أضطرت - وعلى عجل- أن ترمي وليدها وبدون أي اختيار كحجارة ساقطة بلا هدف في أي حضن، رغم أن شكي إن من تفعل ذلك -ومع كل الأعذار- لن تصلح أماً لأي طفل، وما عزز شكي إنها ليست أمه أن الطفل ما كان أبهاً بانتظارتها نحوه، وظل منشغلاً بي، وهي لم تؤشر أية دلالة تؤكد تبعيته لها، كنت أحدق في عيني المرأة، لم أجد فيهما حرص الأمهات وحذرهن وخشيتهن وقلقهن على صغارهن حتى لو ابتعدوا عنهن بأمتار، وكان أكثر تحديقها ونظراتها تحوم وتتركز في الوجه اليابس التخشب للرجل الغريب، وفي ذلك الأنف الكبير وكأنها ترى أنف رجل لأول مرة، وكان للاحظ عليها أكثر -وهذا ما لفت انتباه الراكبين- كثرة انشغالها وشدها على عباءتها اللينة بالثقوب، لم يكن حرصها على ثبات العباءة ستر أو حياء، فإن تلك العباءة الرقعة البقعة بدوائر وخطوط من دبق متيبس وعرق، والضائعة فوق رأسها ولجزء من صدرها، لم تحجب عن الأعين ثدييها الضامرين الفارغين للمصوصين وأبطيها وساعديها الشعرين الصلوبين العلقين التشبثين بالعمود للعدني الأبيض مع حرصها أن لا تنفلت عباءتها الشبيهة بخرقة مسح عن رأسها...

ظل الطفل مصراً على الوصول ليدي وحضني، حتى إنه أهمل عبثه مع نفاضة السجاير ومع الجلدة للقطوعة التهدلة في خلفية القعد الذي أمامه... مهما حاولت أن أنشئ أية وشيجة بين الطفل وامرأة العباءة، كان الطفل يهدمها ويلغيها بلا أبالية تجاه نظرات المرأة، وكما كنت واثقاً من حالة الانفصام بين وجه الطفل والوجه الكالح للغموم لرجل السواد، فإن محاولة مني أخذت تجد وتضطرب في فكري ومخيلتي للبحث عن شبح علاقة بين وجه الطفل والوجه للمصوص للمرأة الناحلة الشاحبة.. وكما يحدث لي وفي كثير من مثل هذه الحالات التي لا أصل فيها إلى نتيجة مريحة، فقد انكفأت إلى داخلي وسهوت عن كل شيء، ورغم إنني كنت أرى استمرار حركة اليد للمدودة للطفل نحوي، والأنامل الطرية كعشب ندي وكنت أسمع لثغاته العذبة الرقراقة، إلا إنني ظللت منكفئاً بداخلي، فإن الوحشة التي زرعها الوجه لتصلب القاتم لحاضن الطفل جعلتني في النأى وفي البعيد البعيد حتى عن نفسي...

عندما اقتربت، وكانت الحافلة تقترب من خط النهاية والوصول، لم أعد أسمع أي لغط وضجيج، غادرت كل تلك الوجوه العرقة الغارقة في تعبها وضجرها، لم أتحسس أي حركة أو لثغة للطفل الجميل، ضاع مني ذلك الطفل، لم أجد أثر الأمرأة العباءة، عندما أعتقتني الحافلة كانت خالية، لم يبق فيها وحيداً معزولاً غير جاري كان حضنه فارغاً، كانت ملامحه هي هي في حالة وجود الطفل وغيابه، وعيناه على حالهما في عدم التحديق أو التأمل في اي وجه، وجهه الحجري لا يزال مصراً على ثباته وتجهمه وعبوسه... الوجه الجدور الشروخ للشطور بخط طولي من أثر قديم لسكين، ظل محبوساً في صمته، وحابساً شفتيه التيبستين القاسيتين عن كشف أي مستور، وعينيه عن إرسال أية إشارة أو تلميح أو ومضة عن سر ذلك الطفل البهيج، بل تسلل وتسرب هو أيضاً إلى الكمن القديم لبؤرة الأسرار الحائرة الغلقة في عمق الذاكرة...

2003/11/3

شاعر بلا عصا

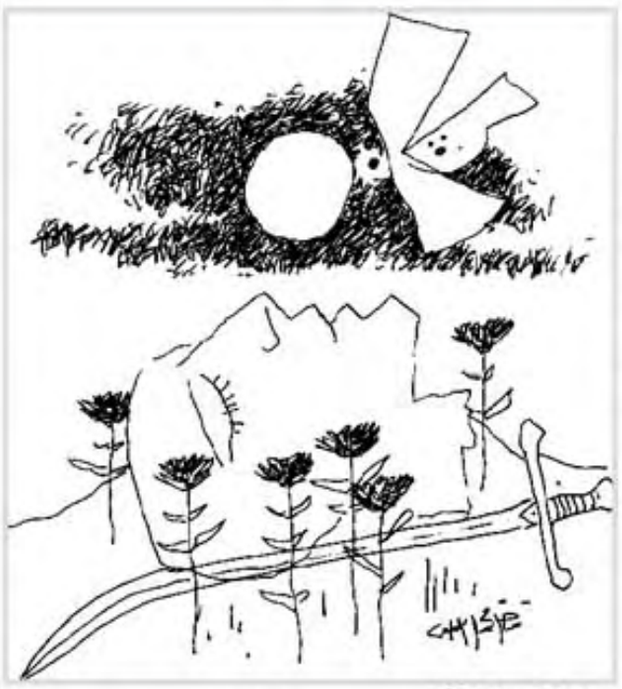

إبراهيم البهرزي

المراعي البهيمة
والنعاج سيئة السمع
تضرب مساءك الأزرق
بجمرة الندم
أيها الشاعر عديم العصا
تنادي في الدى عديم الصدى
أقلة أقلين
عليك العمى!
إنهم لا يلتفتون إلى الوادي
الأمين
شقف من جبال صم
تنوح الزمان جميعاً
قربى لطاسة من دم..
بأظافرهم يتسلق الشعراء
مشهد الصور
كلا!
ليس وقتاً ملائماً للإشارة
اليد الجميلة تلوح للغياب
حيث الذكرى وحدها أهلة
للتبجيل
وحين تزحف بقلب أملس على
صخور الوصول
لن تبلغ إلا شمس الجلطة
باهرة
فوق قمم المراثين مبدلي
الرايات
أيها الشاعر عديم العصا..

***

الشاعر الوحيد الذي لم يمسك
بزمام العصا
أقلت تماما
برغبة سرية
أو باتفاق مضمر
أقلت من التدوين والإشارة
والإشارة
أقلت من الطريقة الأنوفة
لأجزاع التماثيل
الشاعر وعصاه الساحرة
يكون موجوداً
قربى لطاسة من دم..
في احتفال السحر
والضحك
والضرب واللعب
والتوكأ
واختيار الآلهة..
أيها الشاعر عديم العصا
إنها لمهنة تستحق العراك
وإنها لعضلة أيضاً
أن تعارك أحداً
لأجل فكرة
لا تطيق الخدوش؟!